(٣٢)

آية الكرسي

العدد (١١٤) جمادى الآخرة (١٣٩٤هـ) يونيو (١٩٧٤م)

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ **(البقرة: ٢٥٥)**.

هذه الآية تعرف بين المسلمين بآية الكرسي، وقد نوهت السنة النبوية بفضلها ومكانتها، وتتكون من عشر جمل متصلة المعنى في الحديث عن ذات الله وصفاته.

(١) ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ...﴾ ليس في الوجود أحد يتجاوز مرتبة العبودية، فكل ما عدا الله عبد له، وهو وحده المتفرد بالألوهية في السموات والأرض.

من قال عن نفسه إنه إله فهو كاذب، ومن قال عنه الناس ذلك فهم عليه كذبة، وقد تمر بالناس أعصار يتخذون فيها بعض الجمادات والدواب آلهة، وهذه أعصار الانحطاط الذهني والنفسي التي نرجو أن يتم خلاص البشر جميعًا منها.

ولكن الضلال الشائع إلى اليوم اتخاذ بعض البشر الطيبين آلهة مع الله بحجة أنهم انبثقوا منه أو أنه حال فيهم.

وقد حارب الإسلام هذه الضلة حربا شديدة، وأكد أن البشر مستحيل أن يرتفعوا إلى مصاف الآلهة، وأن الله العلي الكبير لا يمكن أن يهبط إلى منازل البشر.

إنه الإله الذي خلق غيره، ومنحه الحياة، وقام على أمره من المهد إلى اللحد ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرًّا وَلَا نَفۡعًا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾(**الفرقان: ٣**).

ورسول الإسلام- وهو قمة البشرية- عندما يدعو الله يؤكد هذه الحقيقة: «اللهم أنا عبدك وابن عبدك وابن أمتك وفي قبضتك، ناصيتي بيدك ماض في حكمك، عدل في قضاؤك».

(٢) ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ ...﴾ والأحياء من الخلق ليس لهم من أنفسهم ما يوجب الحياة، إن الحياة عرض مفاض عليهم من خارج أنفسهم.

وهو عرض يفارقهم يومًا ولا يعود إليهم إلا وفق مشيئة مفيضه جل شأنه، الحي الذي لا بداية لحياته ولا نهاية، فحياته وصف ملازم له أزلًا وأبدًا، وذلكم الفارق بين حياة الخالق والمخلوق.

ومن ثم يقول الله لنبيه: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ (**الزمر: ٣٠**) أما المتفرد بالحياة العظمى فهو الله.

ولما كانت هذه الحياة وضاحة نفاحة ناسب أن يجيء عقبها وصف القيوم أي الذي يمد الأكوان والخلائق كافة بحركاتها وسكناتها، ويشرف إشراف إحاطة وهيمنة على شؤونها وأحوالها، فهي أحوج ما تكون إليه وهو أغنى ما يكون عنها.

وقد ورد في الآيات والآثار أن الله قائم على كل نفس بما كسبت وأنه القيم على السموات والأرض ومن فيهن.

والقائم على الشيء، والقيم عليه أو القوام عليه، ألفاظ تتفاوت في الكشف عن هذه الإحاطة الشاملة لفنون التصريف وألوان السيطرة على العالم.

ولكن لفظ القيوم جاء على هذه الصيغة في المبالغة إشارة إلى أنه من

المستحيل أن يفلت زمام الأمور من الخالق أو أن تسير في وجهة غير ما قضى، إذ كل شيء يستند في وجوده وبقائه وتقلبه إلى هذا الوجود الأعلى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ ﴾ (**فاطر: ٤١**).

وهذه الجملة - الحي القيوم - أولى الجمل التسع التي ترادفت أشبه بالاستدلال على الوحدانية المتقررة في الجملة الأولى من آية الكرسي.

إذ هذه الأوصاف تنفي الشركة نفيا حاسمًا، وتشهد للباري أنه لا إله غيره.

(٣) ﴿ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ ﴾ السنة ما يخالط الأجفان من أوائل النعاس، والنوم هو الاستغراق التام.

والمراد أننا نحن البشر تدركنا ساعات غفلة نفقد فيها الشعور بأنفسنا وما حولنا.. بل نحن في إبان اليقظة يختلف انتباهنا ونشاطنا الذهني نحو ما نفكر فيه وما يحيط بنا.. وعند الكلال يضعف هذا الانتباه، وتهن العزيمة، وتكثر الأخطاء.

لكن رب العالمين لا يشغله شأن عن شأن، ولا يغفل عن أمر في السماء لاهتمامه بأمر في الأرض، ولا تلحقه عوارض الوهن والإعياء، ولا تنفك قبضته الواعية عن ذرة من العرش أو الفرش لسهو أو إغفاء.

(٤) ﴿ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ ﴾ الله واسع الملك، وما تقول في غنى يشمل آفاق السموات وفجاج الأرض؟

إن العالم كله، علوه وسفله، ملك لله وحده.

والذين يظنهم الجاهلون شركاء لله، ليس لهم في هذا العالم ذرة، إن كانوا أصناما فما هي الأصنام؟ تماثيل نحتها المصورون فهم في الحقيقة يملكونها ولا تملكهم.

إن كانوا بشرا، فهؤلاء البشر ملك لمن صورهم في الأرحام، وجعل صدورهم تهبط وتعلو بالشهيق والزفير، ولو شاء أن يقف دقات قلوبهم في أية لحظة من ليل أو نهار ما رده راد.

إن هناك مُلاَّكاً على المجاز يضعون أيديهم على بعض التراب ليرتفقوه حينا، وربما طغوا بما يملكون ظاهرا، ثم يجيئهم الموت فيدعون الحياة صفر الأيدي، يدعونها لمالكها الحق الذي له ميراث السموات والأرض ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ (**الأنعام: ٩٤**).

(٥) ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ القاعدة العامة في الإسلام أنه لا شفاعة لمشرك، أو ملحد.. وأنه لا حق لأحد من الملائكة أو المرسلين يذهب به إلى الله ليقول له اعف عن فلان أو اترك فلانا.. وأن الأساس الأول للنجاة هو الإيمان والعمل الصالح.

ولذلك قال الله تعالى قبل هذه الآية مباشرة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (**البقرة: ٢٥٤**).

ويقول مخبرا عن مصاير المشركين والمجرمين ﴿ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ (**المائدة: ٧٢**). ويقول أيضا ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ (**فاطر: ١٨**).

وقد يقع- لمن ينجون بأعمالهم- شيء من الفضل ترتفع به درجاتهم فوق ما يستحقون.

أو يقع- لمن قاربوا ولم يصلوا- شيء من العفو ينجحون به ولا يرسبون، ويجعل الله السبب الظاهر في ذلك شفاعة المرسلين أو الصالحين.

وهي شفاعة لا ترجع إلى أن هؤلاء المرسلين أو الصالحين يجيرون على الله أو ينقذون منه من يريد عقوبته، كلا، فما يجرأ ملك ولا نبي على أن يقف من الله هذا الموقف.

إنهم لايشفعون إلا بإذنه، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى.

قال تعالى ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝٢٧ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ (**الأنبياء: ٢٧، ٢٨**).

﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ (**طه: ١٠٩**).

وربما قال قائل: ولم هذه الشفاعة وما قيمتها؟ والجواب.. أنها لا تعدو لونا من إكرام الله في الدار الآخرة لمن أهينوا بسببه في الدنيا، فيريد الله أن يصلح بالهم وأن يعلي قدرهم، وأن يشعر عباده بما لهم عنده من مثوبة ومنزلة، وأن يطوي قلوب المقصرين والمتأخرين على محبتهم وإعزازهم لما سبق إليهم من فضل على أيديهم.

بيد أن الشفاعة المذكورة لا تهدم قواعد العدل، ولا تعطل موازين الحساب ولا يحتاج إليها سابق بالخير، ولا ينتفع بها مارق من الحق.

(٦) ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ليس يخفى على الله شيء في الأرض ولا في السماء، وعلم الأمس واليوم والغد عنده سواء.. كأن العالم منذ خلق، وإلى أن تبدل معالمه صفحة واحدة يستوي فيها القريب والبعيد والأول والآخر.

وذاك- بداهة- لأن الخالق يعلم ما خلق، ولا يتصور أن أحدا صنع من ورائه شيئًا فيكون هو- سبحانه- جاهلا به.

إن الإبداع – وهو إبراز شيء من العدم- لا يقدر عليه إلا الله.

والتغيرات التي تحدث في المادة – وهي محور الأعمال البشرية- لا تتم إلا بأقدار الله، ومن هنا كانت إحاطة العلم.

ومن هنا كان معنى قولنا: إن الله لا يعلم هذا الشيء.. إن هذا الشيء لا وجود له، إذ لو كان موجودًا لعلمه حتمًا، وهذا معنى الآيات الكريمة.

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (**يونس: ١٨**).

ولقد تجول الفكرة في خاطري- وكم يحمل تيار الشعور الساري في كيان المرء من خطرات وسوانح- فأقول: إن الله يعلم هذه الخطرة المارة، كما تمر السحب بالآفاق.

ثم أقول: وعلمه بها منذ أجيال!

وأَسْتَتْلِي القول: وهو يعلم من غيري مثل ما يعلم مني!

ومن غيري ألوف مؤلفة تزحم أرجاء العالم.

وعلمه يسع هؤلاء في عصرنا.. وما قبل عصرنا وما بعد عصرنا!

وما يملك المرء وهو يتابع هذا التصور إلا أن يهتف بالآية.

﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ (**غافر: ٧**).

(٧) ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ ينابيع المعرفة تنبجس ابتداء من مشيئة الخالق، حتى العلم بما يقع في مجال السمع والبصر، إنه لولا ما ركب في الإنسان من عقلٍ مُدركٍ لمَّاحٍ ما استطاع أن يفقه مما حوله شيئًا.

والاطلاع على ما هو أعمق من ذلك موكول إلى مراتب الذكاء الإنساني،

وأنصبتنا من هذا الذكاء مقسومة علينا ونحن أجنة في بطون الأمهات.

ومن هنا كان فتح نوافذ قليلة يطل منها العقل البشري على آفاق من العلم محدودًا بما تهيئ المشيئة العليا من أسباب عادية أو غير عادية.

ومصادر المعرفة المعتادة مبثوثة في كتاب الكون المفتوح، وفي تجارب الناس مع الحياة العامة، ويمكن بالوعي والتأمل والتجربة أن نبلغ آمادا بعيدة في هذا المضمار دون حرج ودون قيد.

أما المعارف الغيبية التي مصدرها الوحي الأعلى، فإن الله قد اصطفى لها رسله الأولين وقد انتهى هذا المصدر بالرسالة الخاتمة.

ولن يحيط أحد بشيء من هذا العلم عن الاتصال بالله أو بملائكته، ومن زعم ذلك فهو كاذب.

وقريب من ذلك الإنباء بالغيوب، فإن هذا ليس من العلوم الميسرة، للخلق حتى تتاح فرصها للبشر على سواء، ولا مكان لوحي ينزل به بعد انقضاء النبوات.

ومن ثم فلا يقبل من أحد القول بأنه داخل ضمن الإمكان العام في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾.

(٨) ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾.

المتبادر إلى الأذهان أن السموات والأرض هما حدود الملك الإلهي، وهذا خطأ، فإنهما بعض آثار القدرة العليا فحسب، وكذلك قال في آية أخرى:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ **(الشورى: ٢٩)**.

وقال: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ...﴾ **(الروم: ٢٥)**.

هما من آيات الله، وآيات الله الشاهدة بجلاله لا يحاط بها، وكرسيه من الرحاب بحيث يسع السموات والأرض وسائر ما لا نحصي من آيات.

ونحن لا ندري ما الكرسي؟ ولا نكلف باكتناه ذلك.

وكل ما ندركه من هذه الجملة هو ما توحي به من الإشراف الإلهي العالي على سائر الخلق، ما نرى منه وما لا نرى منه، وأن السموات والأرض ما يستغرقان إلا جزءًا من الملكوت الواسع الذي اشتمل عليه هذا الكرسي ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴾(**البروج: ٢٠**).

(٩) ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ ﴾ لا يتجشم أية مشقة في ضبط السموات والأرض وتدبير الأمر بينهما، كما أنه لم يتجشم أية مشقة في الخلق الأول، وهذا ما ذكره في قوله ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ (**الذاريات: ٤٧**).

أي إن ذلك البناء شيء هين إلى جانب ما في وسعنا، كما ينفق صاحب القناطير المقنطرة من الذهب والفضة فلوسًا قليلة، فلا يرى أنه أعطى شيئًا طائلا، كذلك- ولله المثل الأعلى- بناء العالم وحفظه، وما يتعب الخالق المدبر، ولا يثقله ولا يرهقه، لفرط عظمته.

والجملة السابقة في وصف الكرسي تشير إلى علو الذات.. ولذلك جاءت الجملة الأخيرة.

(١٠) ﴿ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾.

تذييلا يختم المعاني السابقة بذكر اسمين من أسماء الله الحسنى مناسبين للمقام، مقام العلو والعظمة الواجبين لذي الجلال والإكرام.

